لم الفلسفة

إعادة قراءة لكتاب الدكتور عبد الغفار مكاوي

بقلم: أ. د. حسين علي(*)

الكتاب الجيد هو الذي تشعر بعد أن تقرأه بأن ثمة تغييرًا إلى الأفضل قد طرأ على عقلك ووجدانك، وتشعر أيضًا بعد قراءته أنك أصبحت إنسانًا جديدًا مختلفًا عما كنته قبل قراءته. وإذا صدق هذا المعيار على بعض الكتب مرةً، فإنه يصدق على كتاب «لِمَ الفلسفة؟» للدكتور عبد الغفار مكاوي مرات ومرات.

في ختام تقديمه للكتاب يقول الدكتور عيد الغفار مكاوي محددًا هدفه من وضع هذا الكتاب:

«لقد كان في الحقيقة هدفًا متواضعًا، لا يخرج عن تحديد ماهية التفلسف ووظيفته، خصوصًا في عالمنا العربي المتخلف الذي ظهرت عليه مظاهر الانقراض والانهيار، وأصبح في حاجة إلى فكر علمي حر ينقذه ويثبته في وجه الأخطار» (لِمَ الفلسفة؟ ص ١٣)، ولهذا كان يأمل الدكتور عبد الغفار مكاوي - حين أصدر هذا الكتاب عام ١٩٧٨ - «أن يجد القارىء نفسه بعد الانتهاء من قراءاته وهو أكثر قدرة على التساؤل غير المحدود، فهذا التساؤل هو الضمان الوحيد لحريته وشجاعته ومسؤليته عن صنع عالم مشترك لا يشكو الفقر من الخير والعقل، والحرية والعدل..» (لِمَ الفلسفة؟ ص ١٣).

«إن الفلسفة هي وحدها التي تميزنا عن الأقوام المتوحشين والهمجيين، وإنما تقاس حضارة الأمة وثقافتها بمقدار شيوع التفلسف الصحيح فيها، ولذلك فإن أجل نعمة ينعم الله بها على بلد من البلاد هي أن يمنحه فلاسفة حقيقيين». (ص ٧)

(*) أستاذ المنطق وفلسفة العلوم بكلية الآداب - جامعة عين شمس.

هكذا يصدر الدكتور عبد الغفار مكاوي كتابه: «لِمَ الفلسفة؟» بسطور للفيلسوف الفرنسي ديكارت – مبادئ الفلسفة ترجمة المرحوم الدكتور عثمان أمين.

إن إعادة قراءتي لكتاب «لِمَ الفلسفة؟» الصادر عام ١٩٧٨ أشعرتني بأن الدكتور عبد الغفار مكاوي إنما يرصد المشهد الثقافي والسياسي والاجتماعي لمصر اليوم ٢٠١٢ فإذا كان ديكارت يقول بوصفه فرنسيًا إن الفلسفة هي وحدها التي تميزنا عن الأقوام المتوحشين والهمجيين، فإن ديكارت لو عاد مرة أخرى للحياة لقال إنني أعني بالأقوام المتوحشين والهمجيين أقطار منطقة الشرق الأوسط خاصةً القطر المصري الذي تعلو أرجائه أصوات تنادي بهدم الأهرامات والآثار الفرعونية المصرية القديمة وفي مقدمتها تمثال أبو الهول، وكذلك تقييد حرية المرأة، وختان الإناث، و إباحة الزواج من القاصرات... إلخ.

إذا كان ديكارت قد قال – كما أشار الدكتور عبد الغفار مكاوي في صدر كتابه - «إن أجل نعمة ينعم الله بها علي بلد من البلاد هي أن يمنحه فلاسفة حقيقيين».. فإن علينا أن نقول من واقع المشهد الحالي في بلادنا:

«إن أشد نقمة يبتلي الله بها بلد من البلاد هي أن يسلط عليهم فئة من غلاة المتشددين المتعصبين المتاجرين باسم الدين من أجل تحقيق مآرب سياسية».

اختار الدكتور عبد الغفار مكاوي أن يقدم لنا «تعريف» الفلسفة كما تعلمناه من تاريخها القديم والوسيط، وشاء أن يجعله مدار الفصل الأول الذي يتناول هذا السؤال «ما الفلسفة؟» وخلاصة هذا التعريف مستمدة من كلمة الفلسفة نفسها بوصفها سعيًا إلى الحكمة، أى تأمل عقلي حر وشامل في «الكل». ولا يزال هذا التعريف في رأى الدكتور عبد الغفار مكاوي صالحًا في إجماله، وإن كانت ضرورات العصر والتطور العلمي والاجتماعي تحتم تطبيقه تطبيقًا مختلفًا عما كان عليه عند الأقدمين، فمن العسير إن لم يكن من المستحيل اليوم أن نقبل المثل الأعلى الذي ينطوي عليه، وهو المعرفة الخالصة من كل علاقة بالحياة اليومية والسياق الاجتماعي.

ولهذا نجد الفصل الثاني من كتاب «لِمَ الفلسفة؟» أشبه «بنقيض الموضوع» بالقياس إلى الفصل الأول الذي قدم «الموضوع» فهو يحاول الإجابة على السؤال المطروح «لِمَ الفلسفة؟» مستعينا بتعريف هيجل الذى حدد معنى الفلسفة في مقدمته لأصول فلسفة الحق بأنها «عصرها

معبرًا عنه بالأفكار» وقد أخذ الدكتور عبد الغفار مكاوى بهذا التعريف لأنه ينطوى على النظر الكلى الشامل، كما يتضمن النقد والتحليل، وكلاهما ضرورى في عصر يهيب بالفلسفة أن تقترب من الواقع، وتغادر أبراجها الجامعية من حين إلى حين.

إننا نعيش اليوم في واقع متغير، هذا الواقع «حدث جدلي» شامل نتحرك فيه مع أخوتنا في الإنسانية. نحن جميعًا مسؤولون عنه وأمامه، مشاركون في حركته واتجاهه، ملتزمون بتطويره والتقليل من شروره وآلامه. فما الذي ينتظره الناس من الفيلسوف، إن كان هناك من كان ينتظر منه شيئًا؟ هذا هو الذي تتصدى له الكلمة الأخيرة التي ستكون بمثابة «التأليف» بين الموضوع ونقيضه السابقين، وحاول الدكتور عبد الغفار مكاوي الإشارة إلى معالم فلسفة قريبة من العمل والواقع ومشكلاته اليومية التي نحيا فيها ونتعذب بها، واستكشاف الدور الذي يمكن أن ينهض به الفيلسوف لإيجاد حل لهذه المشكلات بالتعاون مع زملاءه من العلماء المتخصصين، وذلك إذا تمكن من اكتشاف سقراط القديم الجديد وتبني دوره. (ص ١٢)

ويقول الدكتور عبد الغفار مكاوي: ولهذا فلن نستطيع أن نعد القارىء أو نعد أنفسنا بتعريف محدد للفلسفة، ولا بجواب أخير يحيط بموضوعها إحاطة القشرة بالنواة. وكل ما سنحاوله هو أن نغوص معًا في فعل التفلسف نفسه ونجرب معه قدرتنا على الحرية ومعرفة النفس وبالتالي معرفة الآخرين والعالم المشترك بيننا. (لِمَ الفلسفة؟ ص ٢١)

لنبدأ محاولة الاقتراب من التفلسف بأن نقول أنه فعل نتجاوز فيه عالم العمل اليومي. ولابد بطبيعة الحال أن نحدد ما نقصده «بعالم العمل» ثم بالتجاوز (أو الارتفاع والعلو والتخطي). وعالم العمل هو العالم الذي نضطرب فيه كل يوم لنكسب قوت يومنا.

وعالم العمل هو العالم الذي نضطرب فيه كل يوم لنكسب قوت يومنا. ونؤدي (واجبنا) و(وظيفتنا)، هو عالم (الجهد) و(النفع) و(الإنجاز). (لِمَ الفلسفة؟ ص ٢١)

و«لهذا ليس عجيبًا - كما يقول الدكتور عبد الغفار مكاوي - أن ينظر الناس إلى الفلسفة بوصفها شيئًا غريبًا، وأن تغترب الفلسفة ذاتها أيضًا عن نفسها فتصبح ترفًا عقليًا أو جدلًا عقيمًا غير مسؤول أو محاولة يائسة لتقليد العلوم الدقيقة، تكشف في النهاية أنها تسير في طريق مسدود. وكلما تراكمت ضرورات الحياة اليومية وجثمت أعباء العمل على صدور

الناس انطوت الفلسفة على نفسها في قاعات الدرس – التي يمولها دافع الضرائب دون علمه أو على رغمه! – وانزوى أصحابها في زوايا الكتمان أشبه برواد الجمعيات السرية أو جماعات الهواة!» (لِمَ الفلسفة؟ ص ٢٢)

إن الوجه الآخر لفعل التفلسف هو الحرية. فالفلسفة لا «تستخدم» بالمعنى المباشر من كلمة الاستخدام. وهى كذلك لا تسمح بأن تستخدم في سبيل هدف غريب عنها، لأنها هى نفسها هدف في ذاتها. إنها معرفة «حرة» لا معرفة «نافعة». وليس معنى هذا أن العلوم الجزئية تخلو من الحرية، بل معناه أنها تكون حرة بقدر ما يزاولها العالم بطريقة فلسفية ويحرص على ألا يضيع طابعها الفلسفي والنظري الحر، أي عندما يلمس حدود علمه ويسأل عن معناه وغايته، وقيمته ومنهجه، وأسسه وشروطه، وعلاقته بالعلوم الأخرى وبوحدة المعرفة الشاملة. وأوضح مثل لهذا هو ما يحدث للعلوم الجزئية فيما يسمى بأوقات «الأزمات» التي تراجع فيها مناهجها، وتعيد النظر في مبادئها ومسلماتها. (لِمَ الفلسفة؟ ص ٢٤).

الفلسفة تحمل هدفها وتنطوي على غايتها وكل ما يحمل معناه وهدفه في ذاته لا يمكن أن يكون وسيلة لتحقيق هدف آخر. وكما أننا نحب إنسانًا لذاته لا لكي نحقق هذا الهدف أو ذاك من وراء الحب. فنحن لا نستطيع أن نتفلسف لهدف خارجي عن الفلسفة وإلا قضينا عليها وسلبناها حرية النظر والنقد والمقاومة.

هذه الحرية التي يقوم عليها التفلسف مرتبطة ارتباطًا حميمًا بالطابع «النظري للفلسفة». فالفلسفة هى أنقى صور التأمل. وحينما ينظر الإنسان إلى أى شيء أو أى موجود نظرة فلسفية، فهو في الحقيقة يسأل عنه سؤالًا نظريًا خالصًا من كل غرض نفعي أو عملي. وتحقيق هذا النظر الخالص مرتبط بدوره بوجود علاقة بين الإنسان والعالم، علاقة خالية من كل غرض، اللهم إلا الرغبة في معرفة ماهيته وواقعه. ولن تتيسر له هذه النظرة حتى يكون العالم أو الواقع أو الوجود أكثر من مجرد مجال أو مادة خام لنشاطه وفاعليته. ولن تكون هذه النظرة فلسفية بحق حتى تحيط بالوجود كله وتحاول أن تجربه في مجموعه، وبذلك تحقق تلك العلاقة الأصيلة التي نبعت من حرية التفلسف وجعلت الفلسفة ممكنة. (لِمَ الفلسفة؟ ص٢٥).

في فعل التفلسف يرتفع الإنسان فوق عالم كل يوم ليتجه إلى «العالم»، يعلو فوق البيئة التي يحتاج إليها ويتكيف معها ليندفع إلى مجموع الموجودات. ولكن هل نريد أن نرسم للفيلسوف

صورة رومانسية بقدر ما هي مضحكة؟ أيوافق أحد منا على أن يظل غريبًا عن العالم ومثارًا للسخرية والإشفاق؟ هل يفهم من هذا العلو أنه يغادر مكانًا ليدخل مكانًا آخر، أو أنه يترك أشياء في عالم كل يوم ليستقبل أشياء أخرى في «العالم»؟ (لِمَ الفلسفة؟ ص ٢٨).

إن المتفلسف لا يحول وجهه عن عالم العمل اليومي عندما يرتفع فوقه، ولا يشيح ببصره عن أشيائه الواقعية والعملية الملموسة عندما يسأل عن معناه وحقيقته، ولا يوجه عينيه من مجال إلى مجال آخر يرى فيه عالم «الحقائق» و«الماهيات»، فليس الأمر هنا أمر مجالين للواقع بحيث يترك أحدهما لينفذ في الآخر. ليس الأمر كذلك مهما تبادر للظن من كلمات «العلو» و«الارتفاع» و«التجاوز» التي ترددت من قبل. (لِمَ الفلسفة؟ ص ٢٨).

عالم العمل اليومي، هذا العالم بأشيائه وكائناته، بموضوعاته التي نلمسها بأيدينا نتعرف عليها بحواسنا وعقولنا، هو موضوع التأمل الفلسفي. السؤال الفلسفي ينصب على هذا الشيء أو ذاك مما يقع أمام بصرنا إنه لا يتجه إلى شيء يقع «خارج العالم» أو في «عالم آخر وراء عالم التجربة اليومية». لكنه يسأل عنه بطريقة تمس جذوره وتفتح فيه أعماق الدهشة المتجددة. (لِمَ الفلسفة؟ ص ٢٨).

السؤال الفلسفي إذن الذي يتجه إلى الأشياء التي تقع أمام أعيننا كل يوم، ولكن هذه الأشياء تشف أمام السائل، تفقد كثافتها وبداهتها المعهودة، تكشف عن وجهها العميق الذي لم تألفه من قبل.

كان سقراط يشبه نفسه «بالسمكة الرعاشة»، فأسئلته تجمد المسؤول وتخلع عن وجه الأشياء قناعها العادي. في كل يوم نقول: هذا صديقي، هذا بيتي، هذه زوجتي، وكأنما «نملك» هذا كله. وفجأة يرن السؤال فنتوقف: هل نملك هذا كله؟ هل يمكن حقًا أن نملك؟ ما معنى «الملك» على الإطلاق؟ عندئذ نتفلسف، فنبتعد ونغترب، لا عن الأشياء المعتادة في حياتنا اليومية، بل عن تفسيراتها وقيمتها المألوفة. ونحن لا نفعل هذا لكي نشذ عن الآخرين، أو لكي يقال أننا نفكر بخلاف بقية الناس، بل لأن وجهًا جديدًا للأشياء قد ظهر أمامنا فجأة، وجهًا مختلفًا عن ذلك الذي تعودنا عليه وسلمنا به في لقائنا معه كل يوم. هذه التجربة الباطنة هي التي اتفق على أنها أصل التفلسف. إنها تجربة الدهشة. (لِمَ الفلسفة؟ ص ٢٩).

نسأل الآن: لِمَ الفلسفة؟

السؤال يتعلق بهدف الفلسفة وغاياتها ولما كانت الفلسفة فعلًا إنسانيًا يختص به البشر دون غيرهم من الكائنات، فلابد أن ينصب على دورها أو وظيفتها في المجتمع. ربما يتبادر إلى الظن أن السؤال نفسه غير مشروع وذلك بعد كل ما قلناه عن علو الفلسفة فوق عالم الحياة اليومية والمنافع العملية المباشرة. (لِمَ الفلسفة؟ ص ٤١)

إن الموقف فيما يتعلق بالفلسفة يختلف عن غيرها من أنواع النشاط العقلي، فالمشتغلون بالعلوم متفقون بوجه عام على موضوع علمهم ومنهجهم ومفاهيمه الأساسية. أما المدارس الفلسفية فقد كانت ولا تزال متضاربة حول موضوع الفلسفة ومنهجها وغاياتها. (لِمَ الفلسفة؟ ص ص ٤٣ - ٤٤).

إذا كانت الفلسفة تعاني هذا الارتباك والاضطراب - اللذين تستلزمهما طبيعتها المفتوحة المتسائلة على الدوام فإن العلوم قد نجت منهما إلى حد كبير بفضل اتجاهها لحل مشكلات محددة تقتضيها حياة المجتمع. (لِمَ الفلسفة؟ ص ٤٤)

إن الفلسفة مهما اختلفت تعريفاتها هي في النهاية وعي عصرها معبرًا عنه بالأفكار كما يقول هيجل وهي دائمًا في قلب الواقع والواقع دائمًا في قلبها. وإذا كانت علاقة التوتر بينها وبين الواقع لا تبلغ دائمًا حد الثورة السافرة عليه. (لِمَ الفلسفة؟ ص ٧٤)

نعود إلى سؤالنا الأول: لِمَ الفلسفة؟

والجواب: إن وظيفتها الحقة هي نقد الواقع وتحليله، ولا يعني نقد الواقع القائم أن تعمد الفلسفة إلى الصراخ والضجيج أو تندفع وراء الرغبة في الهدم والتجريح، وإلا أصبح الفيلسوف مهرجًا يتلذذ بالنظر في مرآة نفسه أو نجمًا يسعى إلى الشهرة الرخيصة والزعامة الكاذبة التي لم يكترث بها فيلسوف حقيقي، فضلًا عن أن انشغاله بنفسه لابد أن يصرفه عن النظر الموضوعي حتى إلى نفسه، ناهيك عن النظر إلى الواقع والآخرين (لِمَ الفلسفة؟ ص ٥٥)

والنقد في الفلسفة لا يعني أبدًا إدانة شيء أو صب اللعنات على هذا الوضع أو ذاك، النقد ليس مجرد الرفض والنفي، ولا يصح أن يتحول من «نقد» إلى «نقض». وليس هو الاتهام والتطاول، ولا الصياح والصراخ. إنما هو الجهد العقلي والعملي لعدم تقبل الأفكار وأساليب

الفعل والسلوك والظروف الاجتماعية والتاريخية تقبلًا أعمى. وهو جهد يبذل للتوفيق بين جوانب الحياة الاجتماعية وبين الأفكار والأهداف العامة للعصر، وتمييز المظهر فيها من الجوهر والبحث في أصول الأشياء والظواهر وجذورها وارتباطها بحقائق الواقع من حولها، أي معرفتها معرفة حقة. (لِمَ الفلسفة؟ ص ٦١)

إن عودة الفلسفة إلى مزاولة دورها النقدي هي عودة إلى مهمتها التقليدية التي نمت وتطورت عبر العصور، إذا كان الفلاسفة الحقيقيون قد قاموا دائمًا بهذا الدور الذي تفرضه أفكارهم نفسها فإنهم لم يتوقفوا عن نقد الواقع المحيط بهم حسب طاقاتهم وقدرتهم على الرؤية وبصورة مباشرة أو غير مباشرة. (ص ٦١)

كلمة أخيرة

«لنكتشف سقراط من جديد»

هل ماتت الفلسفة حقًا وانتهى دورها على مسرح الحياة العقلية؟

هل زادت فضيحتها التي رماها بها «كانط» عندما احتضرت بعيدًا عن العيون؟

أم إنها تظاهرت بالموت - كما تفعل بعض الحيوانات الماكرة - كي تنهض أكثر قوة وحيوية؟ (لِمَ الفلسفة؟ ص ص ٦٧-٦٨)

لقد تحملت الفلسفة اللعنات التي انهالت على رأسها (ملعون هو المطلق! هكذا صاح وليم جيمس زعيم البرجماتيين) وصبرت على شماتة أبنائها الجاحدين (من أقطاب العلوم المتخصصة المنتشية بالنصر!). وتمددت برضاها على مشرحة النقد اللغوي والتحليل المنطقي كالطبيب الذي أجرى على نفسه عملية جراحية تشفيه نهائيًا من مرضه، فلم يلبث الجمهور المتحمس من حوله أن صاح مهللًا:

نجحت العملية ومات المريض!. (لِمَ الفلسفة؟ ص ٦٨)

فوجئ الجميع بالفلسفة ترفرف بجناحيها العنقاء التي نفضت عنها بقايا الصدأ والرماد برزت الحاجة إلى فلسفة اجتماعية جديدة. لم يأت هذا الإحساس في الغالب من قاعات الدرس (المشغولة بتحنيط الجثمان الموقر وتدليك أعضائه وإعلان موته النهائي) بل جاء من قلب

المجتمع المتغير الذي يبحث عن قيم ومعايير جديدة: من الشباب الثائر على النظم الجامدة من رجال السياسة والتخطيط الاجتماعي والاقتصادي والبيئي من العلماء والمهندسين والمشرعين ومستقبل عصر العلم والتقنية ونموذج المجتمع العالمي. (لِمَ الفلسفة؟ ص ٦٨)

اتجاه الفلسفة إلى مشكلات الواقع يفرض عليها أخيرًا أن تتجه إلى الرأي العام وهذا يحتم عليها أن تتنازل قليلًا عن لغتها التقليدية لتتكلم بلغة مفهومة تفيد الحوار المشترك بينها وبين أبنائها. إن الوضوح لا يتنافى مع العمق واللغة البسيطة لا تعني السطحية، ومن أراد أن يتجه إلى الشارع والسوق فلابد أن تكون لديه القدرة على مخاطبة الشعب، إن شعور الفيلسوف بالمسؤولية يدفعه إلى هذا وتواضعه يجعله يتعفف عن اعتباره تنازلًا أو نزولًا إلى الشعب. كان سقراط متواضعًا بلا غرور، والتفلسف على طريقة سقراط مستحيل من غير التخلي عن الغرور. (لِمَ الفلسفة؟ ص ٧٣)

إن مهمة الفيلسوف في أيامنا هى أن يتبين أن الأفكار والمفاهيم الرئيسية في الفلسفة تتصل بالمشكلات الواقعية التي يواجهها الإنسان في حياته لأنه إذا انصرف عن الواقع انصرف الواقع عنه، كل هذا يقتضي منه الاقتصاد في إغراق الناس في التحليلات والتفصيلات والتفريعات والمناقشات، كما يفرض عليه الاختيار فيما يتناوله: فمشكلات الإنسان، والحرية، والديمقراطية، وعلاقة الفرد بالدولة، والحياة والموت والتاريخ والتعريف بتيارات الفكر والعلم المعاصرين قد تكون – في لحظتنا الزمنية الراهنة، وموقفنا السياسي والاجتماعي والثقافي الحاضر وسط أشواك التخلف الرهيب في كل شيء – أولى من مشكلات متخصصة أخرى أشد بعدًا وتجريدًا. (لِمَ الفلسفة؟ ص٧٣)

وليس هذا تنازلًا من الفيلسوف، وإنما هو ضرورة تحتمها طبيعة الفلسفة ذاتها. فليس لـ «مقال» الفيلسوف من سبب يبرره إلا إذا اتجه إلى غير الفيلسوف، ولن يحقق وظيفته حتى يكون مقالًا واضحًا، وتكون لديه القدرة على توضيح تصور الإنسان عن ذاته والذوات الأخرى التي يشاركها الحياة ويتحمل المسؤولية تجاهها. (لِمَ الفلسفة؟ ص ص ٧٣ – ٧٤)

يختتم المفكر المصري الكبير الدكتور عبد الغفار مكاوي كتابه القيم «لِمَ الفلسفة؟» بعبارة رائعة يقول فيها:

«إن التفلسف أشبه بالرقص المستمر على حبل. ولكنه ليس حبلًا منصوبًا في سيرك (يعرض مأساة مضحكة مبكية!) وليس معلقًا في الفراغ والخلاء. إنه حبل ممدود على جسم الواقع، ينفذ فيه بقدر ما يرتفع فوقه (وتلك هى المفارقة الجدلية التي أشرنا إليها). وقد أصبح لزامًا على اللاعب الأبدي أن يهبط من عزلته الخطرة في الأعالي ليشارك غيره من اللاعبين على أرض الواقع، ويدخل معهم في الحوار المشترك بين الآراء المتعارضة والمشروعات المتباينة ليناقش ويحكم ويقيم ويوجه. إنه يتميز عنهم بالتزامه التقليدي بالعقل ودوره الحر المسؤول. ونحن اليوم أحوج ما نكون إلى العقل. وتزداد هذه الحاجة الملحة في مجتمعاتنا المختلفة». (لِمَ الفلسفة؟ ص ٨٧)

بقى أن أقول أن بلدًا تريد أن ترقى وتواكب حضارة العصر لابد أن تقرر مثل هذا الكتاب «لِمَ الفلسفة؟» للأستاذ الدكتور عبد الغفار مكاوي على طلاب الثانوية العامة بقسميها العلمي والأدبي، وكذلك طلاب الفرقة الأولى في كل كليات الجامعات المصرية.